◆ قضية التأثير من الوجهة الأسبانية

تحدثنا فيما سبق عن ألوان مهمة من التأثير المشهود للأدب الأندلسى فى الآداب الأوربية ، وقد تعمدنا أن نفصل القول تفصيلاً فى كل ما يوضح هذا التأثير وينبىء عنه بأقوى دليل ، وللقارىء أن يراجع كل باب على حدة ليعرف من هذه الحقائق فى أماكنها المبسوطة :

١- أثر الموشحات والأزجال فى شعراء «التروبادور» .

٢- كيف كانت قصص الفروسية العربية فاتحةً لأدب أوربى جديد .

٣- تحليل الحب وتشريحه ، والسمو بالمرأة إلى عالم طاهر ، نفحة عذرية هبّت من أشعار العرب وآدابهم .

٤- المقامات العربية توجه القصص الأوربى وجهة واقعية اجتماعية .

٥- ابن طفيل يسبق أدباء العرب إلى الحديث عن التربية والتاريخ البشرى والتأمل الفلسفى ، ويجذب المفكرين إلى احتذائه .

٦- الملاحم الأندلسية شعبية وعربية توحى باتجاه جديد .

هذا غير الفصول التى تشرح التأثير فى أدب المشرق ، كما فى حديثنا عن رسالة التوابع ، ومقدمة ابن خلدون عن أثر الأندلس فى الثقافة العلمية بمصر .

أذكر أنى قلت فى مقدمة هذا الكتاب وقد كنا نعهد من يخوضون هذه المباحث يوجزون القول ، بحيث يدرجونها جميعها فى باب واحد أو بابين .. ولكننا وقفنا وقفات هادئة لدى كل مبحث ، لنرد على من يزعمون أن إيضاح التأثير الأندلسى فى الأدب الأوربى شاق عسير ، لأن الآثار الأدبية بزعمهم تندمج سريعًا فى التأليف المطَّرد ، بحيث يتعسر تمييز أصولها على الوجه الصحيح ، ولا كذلك الآثار الفنية والحضارية ، وهم يقولون إننا لا نستطيع أن ننكر أثر الأندلس فى الموسيقى والغناء ، وفى الزخرفة المعمارية والهندسية الفنية لوجود الآثار والمواثل ، ولكننا نجد من ينكر التأثير الأدبى ، معارضًا هذه البحوث باحتمالات أخرى ، وافتراضات تقوى وتضعف . وقد كان ذلك ممكنًا لو أننا أجملنا حديث التأثير فى بضع صفحات كما تَعَوَّدَ أن يجعله الكاتبون . أما وقد أفردنا كل باب ببراهينه وأدلته ، فإن الافتراضات المحتملة لا تنهض فى دَحْضِ الواقع الراسخ إلا كما تقدر نسمة واهنة على زعزعة طَوْدٍ مكين .

ولعلِّى بعد تحرير هذه الصفحات قد قَارَبْتُ ما أريد .. على أن مما يساعد على إيضاح الحق وجلائه أن أكثر القائلين بهذا التأثير القوى غربيون لا شرقيون ، فقد ساعدت القرون المتعاقبة على صفاء كثير من ذوى النفوس المخلصة من شوائب التعصب والاندفاع ، فنظروا بعقولهم البريئة إلى التراث العربى نظرات صادقة ، وفتحوا أعينهم المتيقظة على مكنوناته وذخائره ، فما وسعهم أن ينكروا الحق الصراح ، فسجلوه واثقين ، وسنحاول الآن أن نتابع خطوات التطور المتئد على مرّ الأجيال من النقيض إلى النقيض فى هذه القضية ، لنرىَ كيف قاومت أسبانيا ثقافة العرب عن كراهية حاقدة ، ثم تراخت بها الأيام على هذه الكراهية المتنمرة أحقابًا ذات عرض وطول ، حتى استسلمت فى النهاية التسليم بالحق لأصحابه ، فوزنت تاريخ العرب فى بلادها بميزان جديد ! سقطت الأندلس المسلمة فى يد أسبانيا النصرانية ، فَهَبَّتْ هذه تطارد الإسلام بكل ما تستطيع ، وتعدّ قرونه الثمانية بالأندلس ليلاً دامسًا يجب أن تزول آثاره الكريهة عن البلاد ، وانطلق الكُتَّاب يؤرخون العهد العربى وهم يتوجعون لمحنة قاسية طال عليها الأمد ، فهو فى رأيهم حلم مفزع رهيب جثم كابوسه الثقيل على صدورهم ، فكظم الأنفاس فى عنف

حتى استيقظوا بعد بلاء شديد ! وقد دخل الكردينال «كمنيس» غرناطة فى سنة ١٤٩٩م، وحث مطرانها ودوقها على اتخاذ وسائل حاسمة لتنصير المسلمين ، وشَرَعَ أعنف وسائل الإرهاب من تقتيل وإحراق وإغراق لمن تُحدثه نفسه بالمقاومة ، ثم جَمَعَ ما استطاع جمعه من الكتب العربية ورماها أكداسًا فوق أكداس فى أكبر ساحات المدينة وأضرم فيها النار لتذروها رمادًا فى يد الريح ، وقد ذهب بعضُ الكُتَّاب إلى أن عدد ما أُحرق من الكتب العربية يبلغ المليون ، وهو رقم يصل إلى ما أغرقه هولاكو من الكتب الإسلامية فى دجلة والفرات حين اكتسح التتار بغداد ! ولله كم لاقت الثقافة العربية من أهوال على يد الهمج والرعاع !

كان من نتيجة ذلك أن رأى مؤرخو الأسبان أن الحط من شأن الحضارة العربية واجب دينى ووطنى معًا ، فأخذوا يستمطرون اللعنات على العصر الإسلامى ، ويتخيلون شتى الموبقات المنكرة لإلصاقها بهذه الحقبة المضطهدة ، وإذا أعجزهم أن يروا من الأحداث نواة يغذونها بالتزيد ويجوفونها بالتمويه ، استعاروا من العصور المظلمة فى غير الأندلس ما يروع ويفزع ، ثم صبوه ظالمين على العرب والإسلام ، وفى هذا الاتجاه الجائر كتب «ماريانا» فى عصر شارلكان تاريخ أسبانيا العام ، وقد جعله عدلاً ومرحمة ، إلا فيما يختص بالعصر الإسلامى ، فهو عهد الجرائم والفظائع والنكبات . ومن المذهل أن الأندلس قد احتلت قبل العرب بطغاة أجانب سفَّاحين ، ولكنهم كانوا فى رأى ماريانا معتدلين ذوى مطامح ! بل إن الأندلس بكل تأكيد لم تتَرَدَّ فى هوة أعظم وأقسى مما كانت عليه قبيل الفتح الإسلامى ، ومع اتضاح هذه الحقيقة البديهية ، فإن عهد لُذَريق وغيطشة كان فى رأى هؤلاء هو الشفق الذى يجلل الأفق قبيل غروب الشمس وانتشار الظلام .. ونادى بعضهم جهرة بأننا إذا أردنا معرفة أصل كل تقدم حضارى فى أسبانيا فلنبحث عنه لدى اليونان أو الرومان دون العرب ، لأن حكم هؤلاء البدويين قد أَخَّرَ تَقَدُّمَ الأسبان قرونًا عديدة ، ولولا ذلك لنهضت بلادهم سريعًا كما نهضت فرنسا وإنجلترا وألمانيا وشعوب القارة المتحضرة ، وقد نسوا أن تأخر أسبانيا إذا عدت أسبابه فإنه يرجع مبدئيًا إلى إبعاد العرب واستئصالهم ، وقد كانوا أصحاب الزراعة والصناعة والتجارة والعلم

والعمل ، فلما نأوا عن ربوعهم أعوزها أن تجد من يقوم على نهضتها العمرانية ، فَرُدَّتْ إلى الحضيض ، والذى يشك فى ذلك – كما يقول الدكتور أحمد أمين فى ظهر الإسلام[1] «يجب أن يقارن بين قرطبة وأشبيلية وغرناطة وغيرها من مدن الأندلس أثناء ازدهارها وبين الأمم الأوروبية فى ذلك الزمن ، وليكن منصفًا فى المقارنة ! أيهما كان أرقى علمًا ، وأحسن حضارة ، وأسمى تقدمًا ؟ هل يساوره شك فى أن الأولى كانت كلها أرقى من الثانية ؟ وأن بعض المؤرخين شبّه مدن الأندلس وسائر الممالك الأوربية بحال «فينَّا» بين بلاد البلقان جميعًا» .

ولو كان الذين يكتبون تاريخ الأندلس على هذه الصورة المنكرة يجهلون الحقائق السافرة لالتمسنا لهم بعض العذر فى أحكامهم الخاطئة المخطئة ، ولكنهم يعرفون معرفة يقينية أن أول مدرسة للترجمة بأوربا قد نشأت فى «طليطلة» بالقرن السابع ، فتحولت بذلك إلى مركز ثقافى كان يديره لأول عهده «دون رايموندو» أسقف المدينة ، وقد ترجمت إذ ذاك مؤلفات عربية لابن سينا والغزالى ، ومؤلفات يونانية عن الترجمة العربية لأرسطو ، ثم أخذ يتوافد على هذه المدرسة الفريدة عشاق المعرفة من الشعوب اللاتينية جميعًا – وفيهم القسس والرهبان – ليجدوا الزاد الصالح من ثقافة العرب . وتوالت القرون على نشاط هذه المدرسة حتى دعت الحاجة إلى إنشاء غيرها ، فأسس «رايموندو ليوليو» مدرسة الدراسات الشرقية فى أجمل سواحل «مايوركا» لتساعد على نشر الثقافة الأندلسية ، أما «الفونسو العاشر» فقد أفرغ اهتمامه فى هذا المضمار ، واهتم بدراسة العلوم والآداب العربية ، بل أمر بترجمة القرآن الكريم إلى الأسبانية ، مع مؤلفات تقدمت الإشارة إليها ، مثل كليلة ودمنة والسندباد ، وزاد فأنشأ فى «أشبيلية» مدرسة عربية ثالثة ، فليت شعرى ، ماذا كانت تصنع مدارس «طليطلة» و«أشبيلية» و«ميرمار» إذا كانت الثقافة العربية لا شىء كما يدعون ؟ وهل يُعقل أن يقدم أعداء العرب على إنشائها وهم لا يلمسون بها نفعًا يُتاح ، أو أن المعقول أن الثقافة العربية الراقية قد أجبرتهم على الإذعان لسيطرتها ، فكانت معراجهم الأول إلى الارتقاء ؟ أجل لقد أجبرتهم على ذلك صيحات الإنكار من

---

(١) ظهر الإسلام – ج ٣ ص ٣٠٩ .

الحمقى والمتجاهلين ، وكان من التناقض المضحك أن يهجن المسرفون من المؤرخين عهود العربية الزاهرة وهم يتعلمون لغتها وعلومها فى مدارسها ، ويرتشفون الزلال من معينها الثَّجَّاج !

مهما يكن من شىء ، فقد ظلّ ما بقى من أكداس المجلدات العربية بعد أن أُعدم الحشد الكثير - مجفوًّا مهملاً فى دير الأسكوريال ، حتى نشبت النار بهذه البقية المجفوة فلم تترك منها سوى ألفين ، وكانت قبل الحريق فوق عشرة آلاف مخطوط ! فاستيقظت الحكومة الأسبانية من غفلتها[1] - كما يقول الأستاذ محمد عبد الله عنان - واستقدمت من رومة حبرًا لبنانيًّا كبيرًا ، هو العلامة ميشيل الغزيرى ، الذى عُرف باسم «كازيرى» ، فقام بدراسة هذه المخطوطات ، وأفرد لها فهرسًا كبيرًا تحدث فيه عن أغْراض كل مؤلف ، وَصَدَّرَهُ بمقدمة حافلة تبسط أهمية هذه المخطوطات ، فوجه الأنظار بذلك إلى الكتب العربية بعد أن كان الباحثون لا يعلمون عنها شيئًا ، بل يكتفون بالمراجع النصرانية ، وكلها مكتوب من زاوية خاصة تسلك سبيل الدعاية السياسية للقومية والعنصرية ! وحينئذٍ نشأت طائفة جديدة من المؤرخين تقابل بين الآراء المختلفة ، وتعرض الرواية العربية بجوار الرواية الأسبانية ، وتستنتج ما يفرضه منطق الموازنة من حقائق تثبت تقدم الأندلس وعظمتها وازدهارها ، وكان من هذه الطائفة الجديدة «أندريس» و«ماسدى» و«كوندى» ، ولأمر ما مال الأخير إلى ترجيح الروايات الإسلامية ، حتى كاد يعتمد عليها اعتمادًا كليًّا ، فوجه الأذهان إلى دراسة المخطوطات العربية والعكوف عليها لمعرفة الحقائق الجديدة ، ولكن المتطرفين من ذوى العصبية قد نقدوه نقدًا لاذعًا ، ورأوا فى تاريخه هدمًا مدمرًا لكل ما خَطَّهُ سابقوه من إرجاف وتهْويل ، ولا سيما أن «كوندى» متبرم ضائق بحركة الاضطهاد الطاغية التى أرهبت المسلمين عقب سقوط غرناطة ، فجعل يقسو على مواطنيه قسوة نجد مبرراتها من الواقع الدامى ، ويكشف للناس فظائعهم الرهيبة ، فباءَ بإنصاف الحق وإغضاب المتزمتين .

---

(١) مجلة الرسالة - يوليو سنة ١٩٣٦ .

ولكن هؤلاء المنصفين لا يقفون وحدهم فى الدراسات الاستشراقية ، فهناك من مستشرقى الدول الأوربية - عدا أسبانيا - من لا يسره أن تكشف الحقائق مأخوذة من الروايات الإسلامية ، وفيهم من سار له ذكر رنان فى تدوين الثقافة الأندلسية حتى أصبح حجة فى موضوعه ، ويرجع إليه كبحَّاثة راسخ القدم ، عميق الاطلاع ، والمستشرق الهولندى الكبير دوزى مثال لمن نعنيه ، فقد قسا قسوة عنيفة على مؤرخى الأسبان من طراز ماسدى وأندريس ، ورماهم بضيق الأفق ، وضحالة المعرفة ، وتابَعه رَهْطٌ من تلاميذه الكثيرين ، وقد ظنوا أنهم بهجومهم على هذا النفر من مستشرقى الأسبان يخمدون أنفاسهم ، أو يحولون اتجاههم على الأقل إلى غير منحاه الأندلسى ، وما علموا أنهم أوقدوا جذوة الحمية فى نفوس الأسبان ، فعكفوا على القراءة المستأنية ، وراجعوا المظانَّ العديدة - شرقية وغربية - حتى اطمأنوا إلى نتائج حاسمة ، جاهروا بها ظافرين منتصرين ، فكشفوا مناحى متعددة من التأثير العربى ، وسنُلِمّ فى إيجاز ببعض مَنْ أسهموا فى ذلك ، لُنرجع بالفضل إلى أهله شاكرين .

كان الدوق باسكوال جايَنْجُوس (١٨٠٩-١٨٩٧) أول أستاذ جامعى للغة العربية فى مدريد ، أَلَّفَ كثيرًا فى الدراسات العربية بلغات مختلفة ، وقد ترجم أجزاءً من «نفح الطيب» ، ونشر مخطوطات مهمة ، أشهرها كتاب ابن القوطية عن غزو العرب لأسبانيا ، ولا ترجع أهمية الرجل إلى هذه الدراسات والمنشورات وحدها ، ولكن إلى شىء آخر ، هو أثره البعيد فى تنشئة تلميذه الصبور فرانشكو كوديرا (١٨٣٦ - ١٩١٧) ، إذ صار خليفته فى الدراسات العربية ، وقد أجاد لغات كثيرة مع إتقانه العربية ، ثم أقدم على إنشاء دار للكتب المخطوطة بالاسكوريال ، وباشر طبع أصول منها بنفسه ، حيث استطاع بصبره أن ينشىء لأول مرة فى أسبانيا مطبعة عربية ، وأن يوجه تلاميذه إلى جمع الحروف بالمطبعة ، ويدربهم على إجادة ما يتفرغ له عمال المطابع من رصف وتصفيف بدون أنفة واستكبار ، ثم أشرف على طبع نفائس مهمة من المخطوطات ، وكان يجمع تلاميذه فى بيته ، فتوسط حلقة من الباحثين النبهاء زاولوا النشر والتأليف بجدارة ، حتى استطاع الأسبانيون أن يُقارنوا بإخوانهم الفرنسيين والإنجليز والروس والألمان فى حقل الدراسات الاستشراقية

من ناحية الإنتاج الكمى ، أما اكتشاف المجهول فى حقل التأثير العربى فقد فازوا منه بأوفر نصيب . وسيسلمنا كوديرا إلى تلميذه الكبير (خوليان ريبيرا ١٨٥٨ - ١٩٣٤) .

وكان أستاذ العربية بسرقسطة ومدريد ، وهو صاحب النظرية الخطيرة التى أعلنت تأثير الموشحات والأزجال فى شعراء التروبادور ، إذ قرأ ديوان ابن قزمان ، ودرسه فنيًّا ولغويًّا وعروضيًّا ، وكشف كثيرًا من مفردات اللغة الشعبية التى كان يتفاهم بها المستعربون الأسبان مزيجًا من العربية واللاتينية ، كما قال بوجود ملاحم شعبية أندلسية أثرت فى الأدب العربى الأندلسى ، فوجهت الشعراء إلى الأراجيز التاريخية ، وإنْ ساروا فيها على نحو ضيق لم ينفرج به الخيال إلى دائرة ذات اتساع ، أما دراسته عن الموسيقى الأندلسية فقد انتهى بها إلى أنها كانت المفتاح المؤدى إلى حل الرموز الغامضة فى الموسيقى الأوربية ، وعلى سننها طرد النسق الموسيقى فيما نقل عن الأندلس فى العصور الوسطى .. وهو الذى تبنى فكرة الأصل الأسبانى لمسلمى أسبانيا ، مُحاوِلاً إثباتها من الوجهة العلمية ، إذ يرى أن العرب الفاتحين منذ عهد طارق نزلوا الأندلس جنودًا بدون أُسَرٍ ، وقد تزوجوا من الأسبانيات جيلاً فجيلاً حتى ذابوا فى الجنس الأسبانى ، ولم يعد للواحد منهم سوى قطرات ضئيلة من الدم العربى كادت تتلاشى كنقطة فى زجاجة ! ونحن حين ننقل عنه هذا الرأى لا نميل إلى موافقته ، ولكننا نلفت النظر إلى تعسف استدلاله ، فهو يضرب الأمثلة على هذه القضية من الأُسرة الأموية ، فيقول ما خلاصته (نقلاً عن ترجمة الدكتور هيكل من كتابه)[1] :

«إن عبد الرحمن الداخل كان يحمل نصف دم عربى فقط ، لأنه كان من أُمٍّ غير عربية ، وكذلك ابنه هشام ، لا يحمل إلا ربع دم عربى ، لأن أمه كانت أيضًا غير عربية ، وهكذا تتناقص نسبة الدم العربى كلما مضينا من أمير إلى آخر بينما تتضاعف نسبة الدم الأجنبى ، فالحَكَم بن هشام ليس له من الدم العربى إلا الثمن ، وعبد الرحمن الأوسط ليس له إلا جزء من ستة عشر جزءًا ، والأمير محمد ليس له إلا جزء من اثنين وثلاثين ،

(١) ص ٤٩ .

والمنذر بن محمد ليس له إلا جزء من أربعة وستين» . وهكذا يمضى خوليان ريبيرا فى استشهاده التاريخى مسلسلاً حتى يصل إلى هشام الثانى ، فلا يكون له من الدم العربى إلا جزء من ألف وأربعة وعشرين جزءًا .

كأنى بالأستاذ ريبيرا يحاول أن يكسب الحضارة الأندلسية العربية ويضمها إلى التراث الأسبانى الغربى بمجرد افتراض متخيل ، ليصبح ابن حزم وابن مسرة وابن رشد وابن طفيل وابن باجة وابن زيدون وأضرابهم من أعلام الفكر والأدب أسبانيين ما بين غمضة عين ، وناحية المحمدة فى اتجاهه أن يفتخر بأعلام العرب ويراهم أجدر بالانتساب إلى موطنه ، أما ناحية الخطأ فإنه نسى حقائق كثيرة تهوى بنظريته إلى البطلان ، وقد أشار إليها الدكتور هيكل من كتابه عن الأدب الأندلسى[1] . إذ قال : «ولسنا ننكر الدافع الكريم الذى حمل الأستاذ ريبيرا على محاولة إثبات أن الأندلسيين أسبان مسلمون ، فهو يحاول كسب الحضارة الأوربية وضمها إلى التراث الأسبانى ، ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن نذهب معه فيما ذهب إليه من تجريد الأندلسيين من عروبتهم ، ولا نستطيع كذلك أن نسلم بتلك التجربة التى أجراها على الأسرة الأموية الأندلسية كدليل على ذوبان الدم العربى فى الدم الأسبانى ، لأننا لا نتصور أولاً أن كل الذين جاءوا إلى الأندلس من الرجال قد تركوا نساءهم فى المشرق ، ولأننا لا نتصور ثانيًا أن الوفود على الأندلس كان دائمًا من نصيب الرجال دون النساء ، ولأننا لا نتصور ثالثًا أن كل عربى فى الأندلس كان ينجب دائمًا من أسبانية جديدة ، وإنْ تصادف ذلك فى الأسرة الأموية ، فالمعقول أن توجد مولّدات من أب عربى وأم أسبانية ، وأن الزيجات كانت تتم بعد الجيل الأول من هؤلاء المولدات ، وبهذا احتفظ الأندلسيون - من غير قصد - بنصف الدم العربى على الأقل ، وإلا فكيف يتصور - بناءً على المثال الذى ضربه الأستاذ ريبير - أن كل زيجة من عربى وأسبانى كانت تنتج رجلاً قد يضطرون إلى الزواج من أسبانيات خالصات؟»أ هـ .

---

(١) ص ٤٧ .

على أننا لو سلمنا من باب الجدل الفرضى فقط بنظرية ريبيرا على بطلانها الواضح لواجهناه بمشكلة جديدة ، هى أن هؤلاء الأسبان دمًا ولحمًا كما يرى - لم يحملوا مشعل الثقافة بالأندلس ، لكونهم أسبانيين أو عربًا ، بل لكونهم ذوى حضارة إسلامية ، فأساس التقدم فى عصور الأندلس لم يرتبط بالعرب إلا لكونهم مسلمين يفتحون العيون على مُثُل جديدة ، فى الإدراك ، والوجدان ، والسلوك ، وبهذه المُثل أصبحت قرطبة فى ازدهارها لا تقل شأنًا عن بغداد ، فليكن أصحاب الحضارة الأندلسية أسبانيين دمًا كما يريد الأستاذ أن يقول ، ولكن الفارق الأول بين من سبقهم من أبناء جنسهم فى عهود الروم والوندال والقوط وبين هؤلاء الذين أورثوا أوربا حضارة مزدهرة ، هو أن الآخرين تقدموا عن طريق الإسلام ، هذه حقيقة ماثلة لا أدرى لماذا يشفق بعض الباحثين - حتى من العرب أنفسهم - من تسجيلها ، وهى من الوضوح بحيث لا تُنكر ، ولعمرى لو زالت العربية من الأندلس وبقيت على إسلامها ما كان هناك مأساة ونُواح على الفردوس المفقود ، ولكانت أسبانيا لدينا كتركيا وإيران وباكستان وأفغانستان وأندونيسيا ممن يعتزون بالإسلام ، ولا ينطقون بالعربية ، أما المأساة الكارثة حقًّا فهى ضياع للإسلام بحضارته وثقافته وسموه ومثله من البلاد ، هذه هى الداهية الدهياء التى قال عنها أبو البقاء :

تلك المصيبةُ أَنْسَتْ كُلَّ كارثةٍ ... وما لها فى طويل الدهر نسيانُ

ويطول بنا القول لو أرسلنا الحديث عن جهاد الأستاذ خليان ريبيرا كما نريد ، فلنودعه إلى تلميذه وخليفته الأستاذ ميجيل آسين بالأثيوس (١٨٧١ - ١٩٤٤) ، وقد كان كاهنًا يتصف بالنزاهة والتقوى ، تخصص فى الفلسفة والتصوف ، ففتح عن مغاليق كثيرة ، وأزال غوامض مبهمة ، ووضع الصلة بين الفكر الإسلامى والفكر المسيحى فى نحو يثبت تأثير الإسلام فى قضايا الفكر العالمى - من دينية واجتماعية وفلسفية - وقد قال بعض الباحثين فى تاريخ الاستشراق الأسبانى أن «جاينجوس» كان الأرض الملائمة ، و«كوديرا» كان من بعده كالجذور التى تتماسك وتمتد فى شعاب الأرض ، ثم نمت الجذور فكان «ريبيرا» هو الجذع القوى حتى اكتمل النماء فصار «أسين» هو الزهرة والثمرة .

لقد نهج التلميذ «آسين» نهج الأستاذ «ريبيرا» ، فاستطاع أن يُكَوِّنَ رأيًا عامًّا أسبانيًّا فى دوائر البحث العلمى ، يجعل من الأسبان - حتى المتعصبين منهم للأسبانية والكاثوليكية - من يعجبون بآبائهم المسلمين ، ويفتخرون بأنهم باعثوا الحضارة الأوربية ، وحتى استطاع فى أوائل سنة ١٩٢٩ أن تستجيب له جامعة غرناطة ، فتقيم احتفالاً كبيرًا لذكرى الخلافة الأندلسية لمناسبة مرور ألف عام على قيامها ، فكان ذلك أول حادث رسمى من نوعه يدل على التفات الدوائر المسئولة فى إسبانيا إلى تقدير أسبانيا المسلمة ، وما لها لا تلتفت إلى ذلك وقد أكدت لها بحوث آسين وأساتذته أن الأسلاف السابقين من المسلمين كانوا أساتذة الفكر الأوربى بعامة ، وأن أسبانيا أصبحت معلمة الشعوب ورائدة الأجيال . وقد ترك آسين أبحاثًا ذات دوى وصليل ، أهمها بحثه الدقيق عن الكوميديا الإلهية ، وتأثر دانتى بقصة الإسراء والمعراج فى الإسلام ، وطبيعى أن تهب الاعتراضات فى وجهه من غلاة الناقدين ، وكان أهم اعتراض قدم إليه أن دانتى لم يكن يقرأ العربية حتى يلم بحادث المعراج كما صوّره المسلمون ، وتشاء الأقدار أن تجيب على هذا الاعتراض بعد وفاة آسين سنة ١٩٤٤ ، إذ اكتشف مستشرقان أحدهما أسبانى هو مونيوس ساندينو ، والآخر إيطالى هو تشيرولى ، أن مخطوطًا عربيًّا عن المعراج قد تُرجم إلى الأسبانية ثم إلى الفرنسية واللاتينية بأمر الملك الفونس العاشر ، وقد كان نفوذه عظيمًا على أكثر دول أوربا وتؤكد المعلومات التاريخية وصول الترجمة اللاتينية إلى إيطاليا ووجودها فى مكتبة الفاتيكان ، وقد عُقِدَت الفُصول فى الموازنة بين الأثر والمؤثر موازنة تفصيلية ، تتحدث عن الجحيم ، ورفاق الطريق ، والنسر الملائكى ذى الأجنحة الكثيرة ، والشعاع الرفاف كما صوره دانتى مستلهمًا ديك المعراج ، وارتداد البصر حسير أمام نور الله ، مما ينطق بالمطابقة ، ويتعب منكرها تعبًا يقذف به إلى اللجاجة العمياء وهى لا تفيد .

لقد كان على مؤرخى الحركة الاستشراقية من كُتَّاب العرب على الأقل أن يفردوا الصفحات الطوال بمجهودات الأساتذة الأسبان ، وفى طليعتهم من أسلفنا الإشادة بجهودهم فى هذا الفصل ، ولكننا ندهش كثيرًا حين نرى من يتحدثون عن دور الاستشراق فى تاريخنا الأدبى يملئون الدنيا ثناءً على مستشرقى فرنسا وإنجلترا وهولندا وإيطاليا وألمانيا وروسيا ، ثم لا يكادون يذكرون شيئًا عن ريبيرا وآسين وكوديرا ، وأحدث كتاب عربى قرأته عن المستشرقين هو كتاب الأستاذ نجيب العقيقى ، وقد أجمل

الحديث عن الأساتذة الأسبان فيما يقرب من صحيفتين فقط ، على حين أفاض فى سير المغرضين من ذوى النزعات المريبة إفاضة توهم القارىء أنه يطالع مآثر ذوى النزاهة والإخلاص فى سيرهم ، ولست بذلك أنكر تاريخ الحركة الاستشراقية فى دول الغرب على وجه شامل دقيق ، ولكنى آسف حين أرى كاتبًا عربيًّا يهتم بلامنس أكثر من آسين ، وهو يعلم أن لامنس ما أفرد عن تاريخ يزيد بن معاوية إلا لينتقص الحسين بن على ، فإذا أثنى كثيرًا على والده معاوية قرن ذلك بمعابة على بن أبى طالب واتهامه ، ثم إذا تطرق إلى مديح جده أبى سفيان وجد الفرصة سانحة للوقيعة فى نبىّ الإسلام ، ويمضى إلى جده الأعلى حرب بن أمية ليفضله على عبد المطلب بن هاشم . وهكذا تصبح سيرة يزيد مدارًا للطعن فى صاحب الدعوة الإسلامية وأسرته ، وكأن التاريخ الإسلامى فى أربعة عشر قرنًا لا يضم أفضل من يزيد لنسهب فى الثناء عليه على حساب سواه . وقد أعقب آسين أساتذة من زملائه ، مثل «أنجيل جونثالث باليثا ، (٨٨٩ - ١٩٤٩) ، أو من تلاميذه ، مثل «أميلو غرسيه غومس» ، المولود سنة ١٩٠٢ ، وسفير أسبانيا فى بيروت ، ورهط من مريديه ، فكتبوا كثيرًا عن الأدب الأندلسى والفكر العربى ، واكتشفوا المجهول من الآراء والمخطوط من الكتب ، وأنْشَئُوا المعاهد الخاصة بالدراسات العربية ، والمجلات الحافلة بالبحوث الأندلسية .. وإذا كان أكثر هؤلاء لا يزالون يواصلون جهودهم الرفيعة فى تسجيل عظمة الأندلس الثقافية والحضارية فإننا ننتظر منهم الرائع المبتكر غدًا وبعد غد ، وقد أخلصوا النية وصدقوا العمل ، والنشاط موفور ، والحقل فسيح .

لقد وجدت الحضارة العربية والثقافة الأندلسية عشاقها بين مثقفى الأسبان ، فكشفوا عن تأثيرها مدعمًا بالدليل ، مفصلاً بالأمثلة والشواهد ! ولعل مما يسر العربى الشرقى أن يعلم أن بين أعلام الفكر فى شتى بلاد أوربا من يؤمنون بثقافة العرب وحضارة الإسلام وتأثير المشرق إيمانًا لا يتطرق إليه الارتياب ، وقد سجلوا من الأقوال فى ذلك ماذاع واشتهر ، ونحن لا نجد فى ختام هذا الكتاب نشيدًا رائعًا تنتهى به هذه الصفحات ، أعظم من أن ننقل أحد هذه الاعترافات المخلصة لرجل من أئمة الفكر الفرنسى ، يعجب بحضارة العرب ، ويتأسف على انطفاء مشاعلهم الوضيئة بعد أن هدت المدلجين فى الظلمات .

يقول الأديب الفرنسى الأشهر موسيو كلوت فارير : «فى سنة ٧٣٢م حدثت فاجعة، ربما كانت من أشأم الفجائع التى انقضت على الإنسانية فى العصور الوسطى ، وكان منها أن غمرت العالم الغربى - مدة سبعة قرون أو ثمانية ، إنْ لم نقل أكثر - طبقةٌ عميقة من التوحش ، لم تبدأ بالتبدد إلا على عهد النهضة ... هذه الفاجعة هى التى أمقت حتى ذكرها ، وأعنى بها الانتصار البغيض الذى ظفر به على مقربة من بواتييه ، أولئك البرابرة المحاربون من الإفرنج بقيادة الكارولنجى شارل مارتل على كتائب العرب المسلمين، الذين لم يُحسن عبد الرحمن الغافقى جمعهم على ما ينبغى من الكثرة ، فانهزموا راجعين أدراجهم .. فى ذلك اليوم المشئوم تراجعت المدنية ثمانية قرون إلى الوراء!

يكفى المرء أن يطوف فى حدائق الأندلس ، أو بين الآثار العربية التى لا تزال تأخذ بالأبصار مما يبدو من عواصم السحر والخيال - أشبيلية ، وغرناطة ، وقرطبة ، وطليطلة - لِيُشاهِدَ وَالألمُ آخِذٌ منه ما عسى أن تكون بلادنا الفرنسية لو أنقذها الإسلام العمرانى الفلسفى السلمى المتسامح ، وخَلَّصهَا من الأهاويل التى لا أسماء لها ، وكان من ذلك أن نتج خراب «غاليا» القديمة ، فاستعبدها لصوص أوستارزيا ، ثم اقتطع قرصان النورمانديين جزءًا منها ، ثم تجزأت وتمزقت ، وغرقت فى دماء ودموع ، وفرغت من الرجال بما بعث فى أرجائها من الدعوة إلى الحروب الصليبية ، وانتفخت بالأشلاء والجثث بحروب داخلية وخارجية لا تحصى ، حدث ذلك حين كان العالم الإسلامى من نهر الوادى الكبير فى أوربا إلى نهر السند فى قلب آسيا يزدهر كل الازدهار فى ظل الإسلام ... ليس ما كتبته فصلاً من التاريخ الرسمى ، بل هو التاريخ الحقيقى الذى يتعلمه المرء بنفسه بما يجتازه من بحار ، ويقطعه من فيافٍ وآفاق ، ويقلبه من خزائن الكتب الأجنبية ، وليس هذا بعزيز على حياة سائح يريد أن يفضح عقب رحلة له - ما كان يلمسه بأطراف بنانه من تلك الأكاذيب الكبرى السفيهة التى أراد معلمون - ولا زالوا يريدون - وضعها أمام أعيننا كأنها حقيقة ، بل هى عندهم الحقيقة !!» .

ليت شعرى ، أهذا نشيد يختم به الكتاب أم هو اعتراف يسجل على الأحقاب؟!...

سلام على الأندلس فى أمسها السعيد !

★★★

مراجع الكتاب

١- أثر العرب فى الحضارة الأوربية - لعباس محمود العقاد - م. دار المعارف - ط أولى .
٢- أدب المغاربة والأندلسيين - لمحمد رضا الشبينى - م. معهد الدراسات العربية .
٣- الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة للدكتور أحمد هيكل - مكتبة الشباب بالمنيرة .
٤- الأدب الأندلسى لجودت الركابى - م. دار المعارف .
٥- الأدب المقارن - للدكتور محمد غنيمى هلال - ط ثالثة .
٦- الأدب الأندلسى - لعبد الجواد رمضان - مطبعة الأزهر .
٧- الإسلام والغرب فى الأندلس للمستشرق بروفنسال ، ترجمة السيد سالم وصلاح حلمى - م. نهضة مصر .
٨- الإسلام فى أسبانيا للدكتور لطفى عبد البديع سلسلة المكتبة التاريخية - ط أولى .
٩- بلاغة العرب فى الأندلس للدكتور أحمد ضيف - مطبعة مصر - ط أولى .
١٠- تاريخ الأدب الأندلسى (عصر الطوائف والمرابطين) للدكتور إحسان عباس - ط بيروت الأولى .
١١- تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى - للأستاذ أحمد السكندرى - ط ثالثة .
١٢- تاريخ الفكر الأندلسى لأنخل جونثالث بالنثا ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس - م. النهضة المصرية .
١٣- تيارات أدبية للدكتور إبراهيم سلامة - ط أولى .

١٤- حى بن يقظان لابن طفيل ، تحقيق أحمد أمين ، م. دار المعارف (سلسلة ذخائر العرب) .
١٥- الحيوان للجاحظ - ط الساسى .
١٦- دار الطراز لابن سناء الملك ، تحقيق جودت الركابى - ط دمشق .
١٧- دراسات أدبية لعمر الدسوقى - م الرسالة .
١٨- الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام ، تحقيق لجنة من كلية الآداب ، م لجنة التأليف بالقاهرة .
١٩- طوق الحمامة - لابن حزم - نشر بتروف بروسيا .
٢٠- ظهر الإسلام ج ٣ للدكتور أحمد أمين - م. لجنة التأليف بالقاهرة .
٢١- العرب والحضارة الأوربية للأستاذ محمد مفيد الشوباشى - دار المعارف .
٢٢- عصر سلاطين المماليك للدكتور محمود رزق سليم - م. مكتبة الآداب بالقاهرة .
٢٣- العقد الفريد لابن عبد ربه ، تحقيق محمد سعيد العريان - م. مصطفى محمد .
٢٤- الغفران - للدكتورة بنت الشاطىء - م. دار المعارف .
٢٥- الفن ومذاهبه فى الشعر العربى للدكتور شوقى ضيف - م. دار المعارف .
٢٦- قلائد العقيان للفتح بن خاقان - م. هندية بالقاهرة .
٢٧- المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية ، تحقيق الأستاذ الأبيارى وزميليه - م. الأميرية .
٢٨- مطمح الأنفس للفتح بن خاقان - م. هندية بالقاهرة .
٢٩- المقدمة - للعلاَّمة ابن خلدون - ط مصطفى محمد .
٣٠- النثر الفنى للدكتور زكى مبارك - ط ٢ المكتبة التجارية .
٣١- نفح الطيب لأحمد المقرى - المطبعة الأزهرية بالقاهرة .
٣٢- وفيات الأعيان لابن خلكان - مطبعة القاهرة .
٣٣- يتيمة الدهر للثعالبى تحقيق محيى الدين عبد الحميد - م محمود توفيق .

★★★